مجلة كلية

الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة

العدد السابع
1990 م

- واقع البحث العلمي ومشكلاته
- قصة دخول الإسلام إلى رواندا
- صورة المسيحية في دراسات غربية
- مفاهيم أساسية في فكر مالك بن نبي
- التراث الإسلامي والاستشراق

صورة المسيحية في دراسات غربية

الأستاذ: الصديق يعقوب
كلية الدعوة الإسلامية - الجماهيرية العظمى

1 ـ كيف تكون الكتابة عن المسيحية مجدية وموضوعية محققة لغايات علمية خالصة؟ وما هي المصادر التي يلزم الاعتماد عليها في تناول هذا الموضوع بالدراسة والبحث؟ لقد كتب عن المسيحية من يعتنقونها أو ينتمون إليها ثقافة وفكراً. كما كتب حولها الغرباء عنها عقيدة وثقافة وفكراً. منهم المؤمنون ومنهم الملحدون. كُتب عن المسيحية تاريخاً وكتب عنها عقائد وعلاقات مع ديانات أخرى وتطورات متتابعة وأعلاماً في الفلسفة وفي اللاهوت أحدثوا في بنائها تغييرات جذرية كان لها تأثيرها البالغ في صياغة عقائد محدثة في بناء المسيحية. وقد كانت نصوص أسفار العهد القديم ومن بعدها نصوص الأناجيل على طول مراحل إنشائها وتدوينها وعلى تعدد ترجماتها عرضة للتغيير والتبديل. ثم أخضعت من بعد لتأويلات متباينة لكنها كلها ظلت في دائرة الشك ثم سرى الشك منها إلى المسيحية ذاتها.

2 ـ ومن الحق بأن نشأة الكنيسة واستمرار النظام الكنسي ووجود نخبة من رجال الفكر تبنت قضية الدفاع عن المسيحية والتمكين لها والتبشير بها أدت كل

هذه القوى إلى استمرار الوجود لهذا الدين وإن كان هذا الوجود اسمياً. ولعل الأمر الجدير بالملاحظة هنا هو أن هناك خطين متقطعين في الغرب اليوم: الدين المسيحي بأسسه ومسلماته والتطور الطبيعي بنتائجه ومقتضياته. إن التعارض بين هذين الخطين قد ظهرت مقدماته منذ البدايات الأولى في عصر النهضة بعد مرحلة العصور الوسطى المسيحية التي هيمنت أثناءها المسيحية ممثلة في الكنيسة فكان من أمر أمم الغرب في تلك العصور ما كان. وحين رجحت كفة الأخذ بأسباب التقدم بدأت قيم المسيحية ومبادئها ومسلماتها تتساقط وتتلاشى. ولم يتوان أقطاب الكنيسة في الترميم والتجديد للإبقاء على ماء الوجه والحفاظ على سلطة تتهاوى. ولكن العقدة كانت أعصى: ففي مقابل الكتابات التي ظهرت تدافع عن الكنيسة وعن أساطير العهد القديم وتاريخية الأناجيل والمسيحية. كانت حركة النقد قد أتت على كل شيء فلم تسلم المسيحية من شواظها لأنها في مواجهة حركة النقد لم تكن تملك عناصر الصمود والدفاع لا من حيث أصول دعوتها ولا من جانب ما تعتمد عليه من علاقة موهومة بالوحي فيما يخص أسفار العهدين القديم والحديث. هذه الأسفار التي تبين من خلال نتائج النقد التاريخي وأصول نقد النصوص أنها ليست وحياً من الله إنما هي تراث اصطنعته وتناقلته الأجيال. وإذ انهار هذا الأساس انهارت المسيحية كلها وهذه هي محصلة الفكر الغربي في حواره مع المسيحية.

أما سر بقاء مسيحية صورية منتشرة في عدة أقطار في الغرب وفي الشرق واستمرار حركة التبشير بها والدعوة إليها مع ما آلت إليه في محيط البحث والفكر سر ذلك أن المسيحية في هذه الشعوب وفي كل منطقة تتسرب إليها إنما تبقى أو تدخل لتملأ منطقة فراغ عجزت الوثنية وعجز معها الإلحاد عن ملئها وحيل بين الإسلام وبينها.

3 ـ الكتابة عن المسيحية برؤية إسلامية تبقى مرتبطة بنصوص القرآن مهما تنوعت مصادر هذه الكتابة إلى جانب نصوص القرآن. والقرآن يحاكم الضمير البشري في مسألة الدين بعامة وفي مسألة المسيحية بخاصة يحاكمه إلى ما ثبت من رواية التاريخ ويحاكمه إلى ما صح من أحكام العقل والمنطق والبرهان. وإذا

استبعد الضمير البشري هذه الأسس في بحث مسألة الدين وفي الفصل في موضوع المسيحية تاريخاً وأصولاً في هذه الحال يصمت الخطاب ويتوقف الحوار ولكن إلى حين.

4 ـ وفي محيط الدعوة إلى الإسلام ندرك الآفاق غير المحدودة لمسؤولية هذه الدعوة ومجال حركتها لمخاطبة كل البشر في أي ظرف بدعوة الحق المتمثلة في عقيدة التوحيد: إيماناً بالله وحده وصياغة للحياة في كل جوانبها بمقتضيات منهج الله ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيَّ عن بينة﴾[1] وفي هذا المسار المحدد لحركة الدعوة الإسلامية في كل مراحلها التاريخية تقابل الناظر المتأمل ومضات من الضوء هنا وهناك تتخذ نفس المسار وإن لم يدر أو لم يتعمد ذووها هذا اللقاء وربما تحاشوه لم علموه.

5 ـ إن جملة من صور المعارضة والنقد قد وجهت وتوجه إلى المسيحية من داخلها أي من كتّاب ينتمون فكرياً وثقافياً إلى بيئة مسيحية. وهذه الصور من النقد ربما يحسن إبرازها وإظهارها لأنها شهادات على المسيحية من أهلها من مفكرين مسيحيين قد استبطنوا دينهم وعقيدتهم. هذه الصور قد يكون لها صدى في الأوساط الفكرية متى وأين كانت. يضاف إلى ذلك أنها تكشف عن مواطن الخلل وعن أوجه القصور في المسيحية كما صورتها وبشرت بها الكنيسة. وعلى ضوء هذه الصور النقدية يمكن أن نتبين هذه الجفوة بين المسيحية وبين الحياة وبين المسيحية وبين النهضة الفكرية والعلمية ومن ثم بين المسيحية وبين الإنسان في هذا العصر على الرغم من المحاولات اليائسة التي تقوم بها الكنائس على اختلاف مشاربها منفردة أو من خلال مجلسها العالمي. إن الثوب الذي نسجته الكنيسة لتغطي به سوءات عقائدها المصطنعة الملفقة المفتراة على رسالة عيسى بن مريم عليه السلام هذا الثوب قد اهترأ. وهذا البناء قد تصدع وتساقطت لبناته. أما صورة المسيحية التي نحاول أن نتبين مع القراء رسمها في هذه الصفحات كما حددت معالمها دراسات رصينة موثقة لكتاب غربيين أعلام هذه الصورة برهان على أن المسيحية منذ تحولها عن مسارها الصحيح قد فقدت مقومات البقاء

(1) الأنفال 42.

وعناصر الاستمرار. وفي مقابل ذلك فإن الدين الحق كما يتطلع إليه الإنسان بفطرته، ويقره العقل بحكمته، وتقتضيه الحياة بخاصية التطور فيها هذا الدين ليس هو المسيحية إنما هو ما يناقضها.

6 ـ المسيحية نشأتها وتطورها: دراسة تاريخية تحليلية نقدية[2] أعدها العلامة الأستاذ شارل جنيبير أستاذ المسيحية ورئيس قسم تاريخ الأديان بجامعة باريس خلال ثلاثينات هذا القرن[3]. المشكلات في دراسة المسيحية تبدأ من الشك الذي يكتنف مراحل تاريخها ونشأة أصولها وتطورها. وتتعقد المشكلة التاريخية بالنسبة للمسيحية حتى درجة اليأس والقنوط من الوصول إلى نتائج مرضية فينتهي الأمر إلى أن اتجاه السلطات الرسمية ـ في عصر المؤلف ـ والرغبات العامة لدى الأساتذة تؤدي إلى محاولة التستر على هذه المشكلة لا إلى بحثها.

والأستاذ جنيبير يرى أن أولى المعضلات في دراسة تاريخ المسيحية ترجع إلى النصوص نفسها التي تمتاز بضعف السند وبالاضطراب وعسر التحقيق. أما عن الوثائق في تاريخ المسيحية فيرى المؤلف أنه لا يمكن بالاعتماد على الوثائق وحدها استخلاص تاريخ متكامل منسجم لأصول المسيحية: «فمن هذه الوثائق لم يتبق لنا إلا فتات يكثر الشك في البناء المؤسس عليه»[4].

إن المسيحية رسالة تجديد وإصلاح في تاريخ اليهودية وليست ديناً مستقلاً عنها لكن ظروفاً تاريخية سياسية هي التي أدت إلى هذا الانفصال فهو انفصال طارىء عارض حيث لا يمكن تصور قيام المسيحية خارج نطاق اليهود.

وإذا استبعدنا الآراء المتطرفة المشككة في وجودٍ تاريخي فعلي للمسيح

---

(2) هذه الدراسة ظهرت طبعاتها بالفرنسية ونقلها إلى العربية مع تصدير لها المرحوم الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر السابق.

(3) توفي المؤلف بعد الحرب العالمية الثانية. وللمؤلف إلى جانب دراسته هذه عن المسيحية دراستان أخريان:
(أ) المسيحية في العصور الوسطى.
(ب) تاريخ المسيحية في العصور الحديثة.

(4) ص 18: المسيحية نشأتها وتطورها. تأليف: شارل جنيبير. ترجمة الدكتور عبد الحليم محمود منشورات المكتبة العصرية. صيدا ـ بيروت. بدون تاريخ.

وانتهينا إلى الإقرار بوجوده التاريخي «فإننا بذلك نضع أنفسنا مباشرة في تيه من التاريخ كله ظلمات وشكوك. ولا أدل على ذلك من أن البحث الدقيق الذي دار في السنوات الأخيرة على أساس من الوثائق الأصلية لم يثبت سوى استحالة تصوير حياة عيسى في شيء من اليقين والتثبت»[5]. إن هؤلاء الذين كتبوا عن سيرة المسيح وحياته متأثرين بانتمائهم العقدي وبنزعاتهم الشخصية: «أصبحوا لا يفرقون بين الخيال والذكريات الحقيقية ولقد خلطوا بينهما في تلك التعاليم التي نشروها»[6] وإذا كانت المسيحية تعتمد أساساً في سرد تاريخها وفي تحديد عقائدها وتفسيرها على نصوص الأناجيل فإن: «تصفح هذه الأناجيل وحده يكفي لإقناعنا بأن مؤلفيها قد توصلوا إلى تركيبات واضحة التعارض لنفس الأحداث والأحاديث مما يحتم معه القول بأن مؤلفي هذه الأناجيل لم يلتمسوا الحقيقة الواقعية ولم يستلهموا تاريخاً ثابتاً يفرض تسلسل حوادثه عليهم بل على العكس من ذلك اتبع كلٌ هواه وخطته الخاصة في تنسيق وترتيب مؤلفه. ولا شك أيضاً في أنه لم يعتمد أحد منهم على سلسلة كاملة مترابطة من الوقائع تسمح له بأن يضع صورة واضحة لحياة المسيح. فلم يكن عملهم إذن سوى أن يربطوا في كثير أو قليل من المهارة بين أطراف من المرويات، وأن يشكلوا منها سيرة افتقرت إلى الوحدة الحقيقية. كما أن عناصرها تبدو مجموعة في إطار مصطنع»[7].

7 ـ إن عقيدة التثليث هي محور العقائد في المسيحية ومكونات هذه العقيدة الأم جاءت في تسلسل تاريخي ذي علاقة بالمجامع المسكونية ومقرراتها. والقول ببنوة عيسى عليه السلام لله ـ تعالى ـ ركن من أركان عقيدة التثليث أو هي إحدى مراحل التطور في تكون هذه العقيدة. ومع ذلك فإن «النتيجة الأكيدة لدراسات الباحثين هي أن عيسى لم يدَّعِ قط أنه هو المسيح المنتظر ولم يقل عن نفسه أنه ابن الله. وذلك تعبير لم يكن في الواقع ليمثل بالنسبة إلى اليهود سوى خطأ لغوي فاحش، وضرب من ضروب السفه في الدين. كذلك لا يسمح لنا أي نص من

(5) المرجع السابق. ص 26.
(6) المرجع السابق ص 27.
(7) المرجع السابق. ص 29.

نصوص الأناجيل بإطلاق تعبير «ابن الله» على عيسى فتلك لغة لم يبدأ في استخدامها سوى المسيحيين الذين تأثروا بالثقافة اليونانية. إنها اللغة التي استخدمها القديس بولس كما استخدمها مؤلف الإنجيل الرابع»[8]. «ونعتقد أنه من المحتمل أن يكون عيسى قد تصور نفسه «عبد الله» وتقدم للناس بهذه الصفة. والكلمة العبرية «عبد» كثيراً ما تترجم إلى اليونانية بكلمة تعني «خادماً» و«طفلاً» على حد سواء. وتطور كلمة «طفل» إلى كلمة «ابن» ليس بالأمر العسير. ولكن مفهوم «ابن الله» نبع من العالم الفكري اليوناني»[9].

8 ـ بعث عيسى أو قيامه من بين الأموات بعد ثلاثة أيام من صلبه المزعوم هذا البعث أو ذلك القيام من الأحداث التي تدخل ضمن فترة تاريخية لاحقة لاختفاء المسيح. وهذه الفترة تتضمن أكثر مراحل تاريخ المسيحية غموضاً وإبهاماً حيث «لم يكن للأساطير بد من أن تحاول تفسير الوقائع فصنعت منها نسيجاً بالغ التعقيد والغموض اختلط فيه العجب العجاب من الأحداث الخيالية المستحيلة، وتعذر بعد ذلك استخلاص الحقيقة منه لتضارب النصوص وتباين رواياتها. وإن روايات الإنجيل التي وصلت إلينا والتي تتعلق ببعث عيسى لتبدو للمؤرخ الناقد نوعاً من الإنشاءات التي لا تنسجم عناصرها قد بنيت على ذكريات مبهمة وتفاصيل متعارضة ثم على حكايات قديمة من تلك التي تعود عليها العالم الشرقي»[10].

9 ـ علاقة بولس بتطور المسيحية تمثل إحدى مسائل البحث في تاريخ هذه الديانة. إن بولس يهودي من يهود المهجر كانت طرطوس موطنه الأصلي ثم كانت رحلته التاريخية إلى دمشق ودعواه رؤية المسيح وابتداؤه التبشير منذ ذلك الحين بجملة من العقائد الطارئة على المسيحية والتي صارت بمرور الزمن هي العقائد الأصلية في صلب المسيحية مما اعتبر بسببه بولس هو المؤسس الحق للمسيحية الحالية. إن دراسة الأجواء الفكرية والحالة الدينية لمدينة طرطوس موطن بولس

(8) المرجع السابق ص 39.
(9) المرجع السابق ص 39 هامش بقلم المؤلف.
(10) المرجع السابق. ص 49.

وما حولها هي التي تفسر معظم العقائد التي أدخلها بولس إلى المسيحية؛ فمن المرجح فيما يقول المؤلف «إن لم يكن من الثابت تاريخياً أن بولس تدرج في نشأته الأولى بين أحضان بيئة مشبعة تماماً بفكرة «النجـاة» القائمة على شفاعة أو وساطة إلّه يموت ثم يبعث ويشاركه أتباعه في مصيره إذ يتحدون به لا بالإيمان المطمئن القوي فحسب ولكن أيضاً بالطقوس الرمزية الفعالة»[11]. إنها إذن جملة من العقائد والتصورات علقت بذهن بولس وفكره فصاغ منها بعض المعتقدات وحاول أن يعلن عنها في نسق منطقي مقبول كلامية جدلية اختلط فيها الحق بالباطل واعتبرتها الكنيسة ضمن أسرار الإيمان لتحفظ لها اعتبارها لدى العامة ولتواجه بها نقد الخاصة أما بولس نفسه فقد بقيت سيرته الدينية تمثل صورة من «التطور الغامض لكن على الإجمال». حين ننظر إلى ملكات بولس العامة في التبشير حسب أساليب يونانية رومانية بعقيدة يهودية الأصل نجد أنه كان في وضع يلائم تحقيق عمله كل الملاءمة: فقد جمع بين مميزات ثلاث جعلت منه أقدر الناس على القيام بهذا الدور: كان يونانياً وكان يهودياً ثم كان أيضاً رومانيا»[12] لقد أشرب في بيئة طرطوس شيئاً من الروح الإغريقية بطريقة تكاد تكون لاشعورية... ورسائله تشهد بمعرفة للنصوص المقدسة مماثلة لما اعتدنا عليه من معرفة علماء اليهود بها... فهو يعشق الجدل ويمتاز بالبصيرة النافذة المدققة وبالدهاء الشديد في تقديم البراهين أو هدمها كما نراه يهاجم الشريعة اليهودية بنفس الأساليب التي استخدمها من قبل في الدفاع عنها. ويتضح في رسائله أيضاً أنه يعتمد على رصيد من المذاهب حول طبيعة الإنسان وفكرة الإثم والعلاقة بين الإثم والموت لا تقل في انفصالها بروح علماء اليهود عن مناهج الجدل التي طرقها»[13].

أما الميزة الثالثة التي جعلت لبولس هذه المرتبة المتميزة في تاريخ المسيحية فهي «تمتعه بالجنسية الرومانية أو بتعبير أدق حصوله على صفة المواطن الروماني وكان ذلك يحميه من الإنزلاق إلى تعصب يهود فلسطين القوي الذي اتصف

(11) المرجع السابق ص 80.
(12) المرجع السابق ص 82.
(13) المرجع السابق ص 83.

بضيق الأفق وكراهية الأجنبي. وكانت ـ تلك الميزة ـ تدعوه إلى العالمية في التفكير والعمل. ثم كانت هي السبب الذي اتخذه ـ وهو لا يكاد يشعر ـ ليرتفع بالأمل الذي ظهر بين طائفة محدودة من اليهود إلى مرتبة الأديان الإنسانية. لذلك كله نستطيع وصف بولس بأنه كان منشىء المستقبل»[14].

10 ـ إذا حاول الدارس تحديد فترة زمنية بدأت فيها المسيحية تدخل طوراً جديداً من أطوار تطورها المتدرج فإن تاريخ هذه الديانة يقول إنها «في مقتبل القرن الثاني الميلادي تظهر في ثوب دين مستقل يدرك أصحابه تماماً انفصاله عن اليهودية وإن كانت عناصره لم تزل بعيدة عن الإنسجام. كما لم تخرج طقوسه وتنظيماته عن الطور البدائي. وكانت هذه المسيحية منذ ذلك الوقت قد ابتعدت كثيراً عن الأفكار التي جاء بها عيسى والحواريون وأصبحت تتجه إلى بني الإنسان جميعاً دون تفرقة بين الأجناس أو الطبقات الاجتماعية لتدعوهم إلى حياة الخلود»[15].

11 ـ من يؤمن بوحدانية الله اعتماداً على براهينها الشعورية والعقلية والكونية هو لا محالة ينفر من كل صور الشرك والوثنية. وعقيدة التثليث أياً كان تفسير المعتنقين لها وكيف كان تحديد الكنيسة واللاهوت لمدلولها هذه العقيدة إنما هي ضرب من الشرك وصريح الكفر. فإذا تساءلنا: كيف انتقلت المسيحية من الدعوة إلى الإيمان بالله وحده في عهدها الأول إلى التبشير بعبادة ثالوث تتناقض طبائع أطرافه فإن الذي يفسر ذلك التطور هو أنه «حدث ببطء شديد... ولو جاء النبأ إلى الإثني عشر الحواريين بأن عيسى قد تمثل فيه الله لما فهموه بادىء ذي بدء ثم لتصايحوا بالفضيحة والرذيلة الممقوتة. ولكن المرجح أنهم لم يعارضوا قول بولس بأن عيسى كان «إنساناً سماوياً» وأنه تمثلت فيه «روح الله» فكانت تلك بداية للإضافات التي تطلع إليها إيمان المؤمنين بإلحاح والتي انتهت في تدرجها بعد التقريب بين الله والمسيح إلى التوحيد التام بينهما»[16].

---

(14) المرجع السابق ص 84.

(15) المرجع السابق ص 116.

(16) المرجع السابق ص 124.

12 ـ المسيحية تتضمن جملةً من العبادات والطقوس الكنسية المعقدة فما مصدر هذه وتلك في تاريخ المسيحية نشأة وتطوراً وبخاصة بعد أن انفصلت المسيحية عن اليهودية؟ للإجابة على هذا التساؤل «يجب البحث في تأثير البيئة اليونانية الرومانية على المسيحية الأولى وهو تأثير نزع إلى إدخال الطقوس الوثنية بعضها أو جميعها في عبادة كلها «روح وحق» بعد أن هجر أصحابها المعابد اليهودية. ونمت الشعائر في المسيحية بالتوازي مع العقيدة وبنفس الأساليب... فلا مجال للشك في أن الروح الوثنية فيما يختص بمظاهر العبادة العملية قد فُرِضت على المسيحية شيئاً فشيئاً حتى نجدها كاملة في احتفالاتها. وزاد التقارب بشكل ملحوظ منذ القرن الرابع»[17].

13 ـ نشأة الكنيسة والتنظيم الكنسي أمر ذو بال في تاريخ المسيحية. وقد تعددت محاولات رجال الكنيسة والقائمين بأمر تنظيمها من أجل ربط فكرة الكنيسة ونشأتها بالعهد الأول من تاريخ المسيحية لكن كل تلك المحاولات لم تفلح ومع ذلك فقد أدى الانفصال عن المعابد اليهودية والوثنية إلى إنشاء رابطة مسيحية عملت على أن يكون لأتباعها تجمع مستقل. لكن المسيحيين لم يؤمنوا بأن وحدة التنظيم يجب أن تكون موازية لوحدة الإيمان وأن لا تقل أهمية عنها لم يؤمنوا بذلك إلا في بداية القرن الثالث الميلادي «ومنذ ذلك الحين بدأ العمل النشط في سبيل تبرير الأمر الواقع فشاع الاعتقاد بأن النظام الأسقفي الملكي إنما أنشأه الحواريون أنفسهم، وتقدمت كل كنيسة بقائمة للأساقفة ترجع بها إلى الحواري الذي أنشأها أو إن لم يتيسر لها الاعتماد على حواري فإلى تابع من أتباعه»[18].

14 ـ لقد واجهت الكنيسة معضلات كثيرة فيما يتصل بعقائد المسيحية التي هي من مبتدعات بولس. وإذا كانت شخصية المسيح هي قطب العقائد المسيحية وجوهرها فقد كان على الكنيسة أن تحذر من تناقضات لا حصر لها يستلزمها هذا السيل من التطورات الناشئة في العقائد المسيحية خلال مراحل تاريخها. ونشير

(17) المرجع السابق ص 126.
(18) المرجع السابق ص 138.

بهذا الصدد إلى التصورات الرئيسية الثلاثة فيما يتصل بالمسيح بن مريم عليه السلام: التصور الأول يقدمه بولس من خلال رسائله: «كان عيسى إنساناً سماوياً أي إنساناً سبقت عناصره الروحية في الوجود وجوده الجسدي وكانت من قبل في السماء. ومبدأ حياته ـ إذا سمح لنا بهذا التعبير ـ هو الروح الإلهي نفسه: فعيسى هو الروح. وجاء عيسى إلى الأرض لينشىء إنسانية جديدة هو آدمها. إنسانية يحررها من أثقال الخطايا بقبوله في سبيل شرائها أن يعيش عيشة الإنسان المحقر وأن يموت ميتة الآثم المشينة. وإنه صورة الله الخفية وهو أول الخلق ففيه خلقت سائر الكائنات في السماء والأرض المرئي منها والخافي على الأعين. وكل الكائنات خلقت به وفيه. وهو سابق للكائنات جميعاً ولكنها موجودة فيه... هذه النظرية الخاصة بعيسى كانت حية قوية بين دفتي الرسائل فوجدها القوم فيما بعد وظنوها وحياً وإلهاماً حتى أصبحت دعامة من الدعائم التي اعتمد عليها التفكير الهليني المسيحي»[19].

أما التصور الثاني للمسيح فهو المنسوب إلى النظرية اليوحانية. ويعرف المسيح في هذه النظرية بـ«اللوغوس» واللوغوس بمفهومه الميتافيزيقي هو «فيض الله» الذي يمكن في نهاية البحث أن يكون تعبيراً عن الله. والقول بأن عيسى هو اللوغوس يكاد يكون مرادفاً للقول بأن المسيح هو الله أما التصور الأخير من التصورات الثلاثة عن المسيح فهو المعروف بالتصور الظاهري وهو ذو علاقة بمادة «الظهور» وهذا التصور يرى «أن السيد المسيح لم يكن إنساناً إلا ظاهرياً وأنه لم يمتحن ولم يمت إلا في الظاهر.... ومن الواضح أن هذه النظريات الثلاث في شخص عيسى تهدف إلى نتيجة واحدة هي الخروج بالمسيح من نطاق البشرية بتقريبه من الله. وتلك عملية عسيرة في حد ذاتها حيث إن المسيحية قد أُخذت عن الدين اليهودي الذي أنشئت على أسسه فكرة التوحيد غير القابل للجدل»[20].

يمكن القول بأن جهود اللاهوتيين في تاريخ المسيحية انصبت كلها على

(19) المرجع السابق ص 149.
(20) المرجع السابق ص 150.

معالجة هذه التصورات الثلاثة ومحاولة التوفيق بينها في إطار من الجدل الذي استعصى على الخاصة ولم تستسغه العامة. لكن الكنيسة كانت مضطرة دائماً إلى معالجة هذه الجوانب من العقيدة. وإذا استعصى الأمر على المعالجة الجدلية الكلامية في حال وجود ضروب حرجة من التناقض فإن الكنيسة تلجأ مكرهة إلى ما أسمته الأسرار. ومن بين هذه الضروب الحرجة التي تتضمن تناقضات لا مخرج منها أن «الإيمان من حيث المبدأ لم يقبل أي جدل في العقيدة الأساسية الخاصة بالتوحيد، وأن النهاية المنطقية لكل الإضافات الإيمانية الخاصة بشخصية ودور عيسى هي تقريبه من الله إلى درجة الوحدة. يضاف إلى ذلك تلك النزعة العكسية التي كانت تسعى إلى إبراز الألفاظ من رمز الأب والابن والروح في شخصيات ثلاث تتميز معالمها يوماً بعد يوم. وهذا يعني في النهاية القول بأن الإيمان كان يتعلق في قوة متزايدة بأهداب فروض متعارضة. ولم يكن للعقول الراجحة إن أرادت الخروج من المأزق سوى الاختيار بين حلين: إما التخلي صراحة عن التوحيد والتسليم بالتثليث. وإما التخلي عن التمييز بين الشخصيات الثلاث في الله والقول بأن كلاً من هذه الشخصيات ليس سوى جانب جوهري من جوانب الذات الإلهية الواحدة. ولكن غالبية المسيحيين رفضت الاختيار بين الأمرين وأرادت أن تُبقي في نفس الوقت على وحدة الله التي لا تتجزأ وعلى وجود شخصيات ثلاث متميزة فيه. وعن هذا الفرض الذي يتعارض طرفاه نشأت مناقشات لا تحصى كان من شأنها إثارة مشاكل تراكمت على مشاكل وصعوبات ترتبت عليها صعوبات متجددة فسببت للكنيسة فتناً هائلة لم يهدأ أوارها تقريباً إلا في القرن الخامس حيث توغلت في دروب من التعبيرات والنظريات اللاهوتية لم يعد المنطق يستطيع إدراك معالمها»[21].

هذا طرف من صورة المسيحية نحسب أن الأستاذ جنيبير قد أبدع في رسمه بما أوتي من علم عن التاريخ العام للأديان ومن إحاطة المسيحية وتاريخها ومن لهجة صادقة في الإفصاح عن حقيقة الأمر بشأنها. إنها حصيلة نصف قرن من البحث والدراسة في هذه الموضوعات مع اتصال مباشر بالهيئات المسيحية

(21) المرجع السابق ص 156.

والكنسية في معاقل الكاثوليكية. وكنا نود لو نطالع كتابيه الآخرين عن المسيحية وتـاريخها في العصرين الوسيط والحديث لأن معالم صورة المسيحية من خلال المؤلفات الثلاثة مجتمعة سوف تبدو أظهر.

15 ـ بمطالعة هذا الكتاب عن المسيحية للأستاذ جنيير ندرك أهمية تاريخ الأديان بالنسبة لدراسة الأديان المقارنة. لكن هذه الأهمية إنما تكون عندما توظف دراسة وثائق تاريخ الأديان للبحث خالصاً. وندرك مع هذا شيئاً آخر وهو أن الإسلام في أصوله وفي تاريخه وفي موثوقية نصوصه كم يقع عليه من الحيـف حين يوضع في كفة لتقع الموازنة بينه وبين هذه الأمشاج الملفقة أو هذه الصورة المرقعة لليهودية وللمسيحية كما تكشف عن هاتين الديانتين دراسات الغربيين. ونلاحظ هنا أن هذه الدراسات الغربية عن الأديان حين يكون للإسلام نصيب منها فإن ذويها يصابون بداء «الإسقاط» فإذا بالإسلام من خلال هذه الأقلام المصابة بهذا الداء يعاني قسراً من كل ما تعاني منه المسيحية حقيقة وطوعاً: تطور العقيدة وعدم التأسيس الثابت لأصولها، التأثر بالمؤثرات الخارجية يهودية أو مسيحية أو حتى وثنية، عدم موثوقية النصوص على فرض التسليم بها. البناء المستمـر للإسلام، والإضافات المتجددة فيه. إنها دعاوى باطلة سرعان ما تتهافت إذا حللناها في ضوء النصوص وفي حضور الوثائق التاريخية لدعوة الإسلام. لكن نفراً من الكتاب في الغرب جعلوا منها غاية كتاباتهم وكانت نتيجة ذلك تشويه صورة الإسلام لدى الرأي العام في الغرب الذي انتهى به المطاف إلى الهروب من المسيحية للإلحاد. وماذا على الباحثين المعنيين بمسألة الدين في الغرب لو بحثوا في الإسلام كما بحثوا في المسيحية ولتكن النتيجة بعد ذلك ما تكون؟ هل ستغضب الكنيسة؟ وما قيمة غضب الكنيسة في مقابلة الوصول إلى الحقيقة في أمر الدين؟ إن الكنيسة لن ترضى حتى عـن هذا الفرز والتحليل والنقد لتراث المسيحية. ثم: ألم تظهر الدعوى في الغرب بأن الكنيسة قد انتهت قبضتها على مسار الفكر بانتهاء العصور الوسطى المظلمة وبداية عصر التنوير وحرية الفكر؟

16 ـ إن قضية النصوص التي يرجع إليها في تأسيس العقيدة وتفسيرها والبرهنة عليها هذه القضية تمثل ركناً في الدين له الأهمية القصوى. لا تخرج عن

هذه القاعدة الأديان الوضعية المنتحلة كما لا تخرج عنها الرسالات السماوية التي درج معظم الكتاب على التعبير عنها خطأ بأنها أديان سماوية. هذه الرسالات التي تتعلق بالوحي الإلهي لأنه مصدرها وموئلها. وفي هذا السياق ظهرت الدراسات عن «الكتاب المقدس» عندما نشط البحث حول المسيحية أصولها وتاريخها ومراحل تطورها. لكن الكتابة في هذا المضمار لم تتخذ مساراً واحداً معيناً وذلك لاختلاف توجهاتها وتباين غاياتها. وبيان الأمر في ذلك أن الكنيسة بحكم وظيفتها في تاريخ المسيحية تدرك خطورة مثل هذه البحوث حول الكتاب المقدس بقسميه القديم والجديد. فإذا كان لا مناص من البحث فهي التي توجهه وتحدد أسسه ومساراته وغاياته بطريق مباشر أو غير مباشر. ونحسب أن ذلك خاضع لحسابات دقيقة لا يخرج عنها إلا حين يفلت من أيدي الكنيسة الزمام مثل هذا الذي تهيأ للناس أن يقرأوه عن المسيحية وتاريخها ونصوصها المقدسة كما قدمها فولتير في القاموس الفلسفي وكما حللها أسبينوزا في رسالته عن اللاهوت والسياسة.

في إطار هذه البحوث المتتابعة عن «الكتاب المقدس» ـ بالنسبة للمسيحية ـ من خلال ما تنظمه الكنيسة بالتعاون مع بعض الجامعات والمؤسسات ذات العلاقة المباشرة أو غير المباشرة مع الكنيسة في إطار هذه البحوث جاء كتاب:

نظرات حديثة في الكتاب المقدس لمؤلفه: هنري أمرسن فوزدك. والكتاب قبل أن يظهر على صورته هذه كان جملة محاضرات شارك بها المؤلف في مؤتمر للمبشرين نظمته مؤسسة: ليمن بتشر بجامعة بايل في الولايات المتحدة ثم رأى معهد يوحنا لودفيك شنلر أن هذه المحاضرات تستحق الجمع والطبع في كتاب مستقل فتحمل هذا المعهد نفقات الطبع وتولى نشر الكتاب مكتب الكنيسة الإنجيلية الوطنية في بيروت. ومن بين هذه الأيدي خرج كتاب: نظرات حديثة في الكتاب المقدس[22].

يساهم هذا الكتاب في رسم صورة للمسيحية من زاوية بعينها هي زاوية

(22) ترجم الكتاب إلى العربية الأستاذ شاكر خليل نصار. وظهرت طبعته العربية في بيروت بدون تاريخ.

النصوص المعتبرة في تحديد العقائد المسيحية. وربما صح القول بأن الصورة المستخلصة للمسيحية من الكتاب لم تكن مقصودة للمؤلف لكنه بطبيعة البحث لم يستطع أن يتحاشى إظهارها. أما غايته من الإطراء والثناء فقد جاءت قاصرة مشوهة يظهر فيها التصنع والافتعال، وتبدو فيها بصمات الكنيسة أوضح من سمات البحث التاريخي التوثيقي المطلوب.

17 ـ لعل مما يلزم ويفيد في هذا الموضوع من خلاله وتوضيحاً لأسسه أن نستعير نصوصاً ذات علاقة مع ما نحن بصدده نستعير لها من مؤلَّف سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة. لأنها تساعدنا في تحديد مفهوم «المقدس» عندما يطلق هذا المصطلح على ما تضمنته أسفار العهد القديم والجديد من روايات ونصوص وحكايات وأساطير. وأهمية هذا التحديد لمفهوم «المقدس» يبديها موقف الباحث المتسائل وبخاصة في محيط الفكر الإسلامي حيث العلاقة وثيقة بين مصطلح «المقدس» ومفهومه وبين «الوحي» ومدلوله في المصطلح الإسلامي فلا تطابق بين مدلولي «المقدس» و«الوحي» كليهما في الفكر الإسلامي والفكر المسيحي وهذا التفريق بين الاستعمالين للمصطلحين في الفكر هنا وهناك أمر ذو بال سواء في الدراسات الخاصة عن الإسلام أو عن اليهودية والمسيحية. أم في الدراسات العامة المقارنة بين موضوعات إسلامية وموضوعات مسيحية تتصل بالقرآن أو تتعلق بأسفار العهدين القديم والجديد. وبهذا الاعتبار فلعل من الأوجه والأوفق أن نستخدم في الدراسة تعبير: العهد القديم والعهد الجديد بدل استخدام «الكتاب المقدس» حتى نصل في البحث إلى مرحلة نتبين فيها الفرق بين المصطلحين: «المقدس» و«الوحي» ونتبين فيها كذلك الفرق في استخدام هذين المصطلحين بين الدراسات الإسلامية والدراسات المسيحية والدراسات المقارنة.

في محاولة لتحديد مدلول «المقدس» في الاستعمال الغربي يقول أسبينوزا: «يطلق اسم مقدس وإلهي على كل ما يؤدي إلى التقوى وإلى الدين... والكلمات لا تدل على معان مضبوطة إلا في الاستعمال فإذا كانت في هذا الاستعمال قادرة على أن تحث من يقرأونها على التقوى أصبحت هذه الكلمات

مقدسة وأصبح الكتاب الذي نظمت فيه هذه الكلمات مقدساً. . . . ولا يكون الكتاب مقدساً ولا تكون نصوصه إلهية إلا بقدر ما يحث الناس على تقوى الله. فإن تخلوا كلية عن هذه التقوى كما تخلى عنها اليهود من قبل أصبح حبراً على ورق أو ضاعت قدسيته كلية وأصبح معرضاً للتحريف. . . . . وتستخدم كلمة «مقدس» مجازياً لكي تدل على نظام الطبيعة نفسه وعلى القدر لأنهما يعتمدان على الأمر الأزلي للطبيعة الإلهية ويصدران عنه. . . . . وتستعمل الكلمة أيضاً للدلالة على كل أمر نبوي بقدر ما يكون ـ النبي ـ قد أدركه بقدرته التي يتفرد بها أو بهبة النبوة. لهذه الأسباب الثلاثة إذن سمي الكتاب كلام الله: أولاً: لأنه أي الكتاب يُعلّم الدين الصحيح الذي وضعه الله أزلياً. ثانياً: لأنه يتنبأ بصورة رواية بالمستقبل بقدر ما قضى به الأمر الإلهي. ثالثاً: لأن مؤلفيه الحقيقيين كانوا في أعظم الأحيان يدعون إلى ما حصلوا عليه بنور خاص بهم. . . وعلى الرغم من أن جزءاً من محتويات الكتاب مجرد تاريخ يمكن إدراكه بالنور الفطري فإن الاسم مستمد مما يؤلف المضمون الأساسي للكتاب»[23] وبهذه الفقرة الأخيرة من تحليلات سبينوزا لمدلول المقدس يمكننا أن نكتفي لنتبين كم هو مرن لفظ «المقدس» هذا. وبصفة المرونة هذه يلزم أن ندرك مدلول: «الكتاب المقدس» حتى لا نقع في لبس بين الوحي بمدلوله في المصطلح الإسلامي وبين «المقدس» في الاستعمال المسيحي عندما يقصد به ما تضمنته أسفار العهدين القديم والجديد من نصوص.

18 ـ ونعود إلى مؤلف الأستاذ فوزدك عن الكتاب المقدس لنستخلص من بعض فقراته قسمات من صورة المسيحية كما ترسمها أقلام نفر من الباحثين الغربيين. المعضلة التي تواجهها المسيحية الآن في الغرب هي هذا التناقض بين متضمنات الكتاب المقدس ومقتضيات ومسلمات العقل الحديث لأنه: «لو كانت

---

(23) ص 48: رسالة في اللاهوت والسياسة. سبينوزا.
ترجمة وتقديم الدكتور حسن حنفي.
مراجعة الدكتور فؤاد زكريا.
الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر. القاهرة. 1971.

الصعوبة فقط جعل «الكتاب» ملائماً للعصر الحاضر فيما يتعلق ببعض القصص. . . . لكان الأمر سهلاً إتمامه ولكن الصعوبة أعمق من ذلك كله. عندما يرجع المرء إلى الكتاب المقدس بعقل تعود أن يعمل حسب مقتضيات العصر الحاضر فإنه يجد نفسه في عالم غريب»[24]. والمؤلف يقدم جملة من الأمثلة على التناقض القائم بين متضمنات الكتاب المقدس التي ظن من قبل أنها حقائق وبين ما انتهى إليه العلم في العصر الحديث من مكتشفات أثبتتها التجربة في نطاق علم الفلك وعلم الأحياء والطب وعلم الطبيعة: «هنا الحيرة التي تصيب أكثر من غيرها عقول المتعلمين فإنهم يحترمون الكتاب. . . . لكنهم ينزعجون بأمور كثيرة في الكتاب لا يعرفون كيف يتدبرونها لأنه يصعب عليهم أن يقبلوا نوعين من الافتراضات العقلية: الأول لما في الحياة العملية. والثاني لما في الدين ـ المسيحية ـ وعليهم أن يحولوا عقليتهم فجأة من الماجريات العادية حولهم إلى طريقة غريبة عنهم يجدونها في الكتاب»[25].

19 ـ إن جملة من المستجدات في العصر الحديث متصلة بالكتاب المقدس يلزم أن تراعى لأن لها تأثيراً على تطور النظرة إلى هذا الكتاب ومن ثم إلى مقررات الكنيسة في مسائل لم تعد مقبولة في هذا العصر. ومن هذه المستجدات التي أحدثت هزة عنيفة في المسيحية المعاصرة ما عرف من: نقد متن الكتاب وتمحيصه. وقد أدى هذا الأمر إلى: «إصلاح عبارات كثيرة مغلوطة فيه أو غامضة. وإرجاعها قدر الإمكان إلى صورتها الأولى في المخطوطات الأصلية للأسفار المقدسة. وكثيرون هم الذين لا يعرفون أن أقدم نسخة مخطوطة للعهد القديم يرجع تاريخها إلى القرن التاسع للمسيح فقط. وأن أقدم نسخة يونانية مخطوطة للعهد الجديد يرجع تاريخها إلى القرن الرابع فقط. وأن النسخ القديمة للكتاب مختلفة الواحدة عن الأخرى في نقاط كثيرة حتى إن الفرد يقدر أن يقول ما قاله «جروم» عن الترجمات اللاتينية في عصره: «إن هنالك نسخاً مختلفة

(24) نظرات حديثة في الكتاب المقدس. تأليف: هري أمرسن فوزدك.
ترجمة: شاكر خليل نصار.
الناشر: مكتب الكنيسة الإنجيلية الوطنية. بيروت. بدون تاريخ.
(25) المرجع السابق. ص 50.

الواحدة عن الأخرى من حيث النصوص بقدر عدد النسخ الموجودة» فجلاء بعض الإبهام في النصوص أو اختيار الأقرب منها إلى العقل وإصلاح الأخطاء الظاهرة فيها قد كانا دائماً عملين مفيدين كل الفائدة»[26].

20 ـ كيف يستخدم القائمون بأمر الكنيسة من قُسُس ورهبان نصوص الكتاب المقدس التي تتناول موضوعات تتصل بحقائق في الكون وفي التاريخ صار من المتعذر على العقل الحديث أن يتقبل ما جاء في تلك النصوص عنها؛ لقد استبعد المعنيون في الكنيسة بأمر قراءة هذه النصوص وشرحها استبعدوا الطريقة القديمة طريقة التحكم بالاعتقاد والاستبداد بالرأي. لكنهم «لم يجدوا لأنفسهم طريقة جديدة تحل محلها فأهملوا الحقول الواسعة في التوراة إذ رأوها لا توافق العصر الذي هم فيه والتجأوا إلى الحقول التي لا جدال فيها والتي لا يتناولها تبديل ولا تغيير، الحقول الروحية الثابتة. . . . على أن في الموقف الجديد نقائص خطرة فإنه لا يشجع الأفراد على استعمال الفكر في الدين. ومع أنه موقف عملي ومقو وحيوي فإنه من الوجهة العقلية مفكك الأوصال وضعيف كسيح يتجنب الأسئلة الحقيقية. . . . لقد ترك الكنيسة تقذفها رياح الوعظ الإلهامي وتحطمها على صخور من فوضى التفكير»[27].

21 ـ في تاريخ المسيحية كما في اليهودية الأم كان هناك دائماً التوسع في المجاز والرمز فيما يتصل بتفسير النصوص المُقَدَّسة، بل إن اعتبار هذه النصوص مُقَدَّسة إنما جاء طبقاً لهذه الرمزية وهذا المجاز. وقد شاعت هذه الطريقة كثيراً حتى أصبحت هي المنفذ والمخرج من المواقف الحرجة التي فرضتها جملة من نصوص الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد. ومن الأمثلة على ذلك أن سفر نشيد الانشاد «بقي خارج الكتاب ولم يحسب من الأسفار القانونية مدة من الزمن طويلة. وحتى في نهاية القرن الأول للمسيح كان الاعتراض عليه شديداً جداً غير أن الرمز والاستعارة ربحا المعركة فألقي على السفر معنى غير معناه الحقيقي، معنى صوفياً باطنياً هو حب الله لاسرائيل ثم جاء المسيحيون فقالوا: حب المسيح

(26) المرجع السابق. ص 56.
(27) المرجع السابق. ص 85.

للكنيسة وهكذا نجده على هذا الأساس في الكتاب المقدس»[28].

ولم يكن استعمال المجاز والرمز في تفسير نصوص العهدين القديم والجديد خاصاً بمثل هذه المواضع في هذه النصوص، لكنه تعين حلاً لا بديل عنه لعدد من المشكلات في كثير من موضوعات هذه النصوص. بل يمكن القول بأن استخدام الرمز في تفسير نصوص العهدين لم يقف عند حد ولم يخضع لمقياس. ووجد فيه أقطاب الكنيسة وأتباعها موئلا يركنون إليه عندما يعمدون إلى إدخال مفاهيم مسيحية كنسية جديدة ضمن نصوص قديمة: فهذا بولس «يستعمل الرمز والاستعارة في الأسطورة اليهودية القائلة إن صخرة تبعت بني إسرائيل في تجوالهم في البرية فقال: إن هذه الصخرة ترمز إلى المسيح»[29]. فالرمز والمجاز في فهم النصوص لم يستعن بهما في الخروج فقط من المواقف الحرجة التي تتضمنها جملة من النصوص إنما وُضِعا كذلك لإدخال عقائد ومفاهيم جديدة إلى حيز النصوص القديمة. وقد ظن أن هذا الإجراء يمكّن للمسيحية وهي فرع اليهودية وهو في ذات الوقت يعاضد الكنيسة لكن ذلك دائماً لم يكن في صالح المسيحية ولا مؤيداً للكنيسة لأنه ينال من أصول هذا الدين وينزع الثقة من هذه النصوص التي هي عماده. وهو إلى جانب ذلك كثيراً ما يجيء في صورة ساذجة باهتة يبدو فيها التصنع والتمحل. من أمثلة ذلك ما نجده عند أوغسطينوس أحد المفسرين الكبار للكتاب المقدس: لقد استخدم هذا المفسر الرمز لكنه استخدام ينبىء عن عقلية كنسية يسيطر عليها الوهم وهو استخدام يقابله عندنا في تاريخ الفكر الإسلامي ضلالات الباطنية في تأويلاتهم للآيات القرآنية وما يشابه هذه التأويلات عند ذوي النزعات الصوفية ولدى بعض الفلاسفة الإسلاميين. إن جنة عدن تبعاً لتفسير «أوغسطينوس» يمكن أن تعني حياة المباركين. وأنهرها الأربعة هي الفضائل الأربع وأشجارها هي كل معرفة مفيدة. . . . وشجرة الحياة هي الحكمة نفسها «لكن هذا المفسر ذاته في الفصل نفسه في نفس الكتاب يقول: «إن جنة عدن هي الكنيسة وأنهرها الأربعة هي الأناجيل الأربعة وأشجارها

---

(28) المرجع السابق. ص 97.

(29) المرجع السابق. ص 99.

المثمرة هي جماعة القديسين وأثمارها أعمالهم وشجرة الحياة هي يسوع»[30].

يلزم أن لا ننظر إلى مسألة التفسير الرمزي للنصوص في تاريخ المسيحية نظرة جزئية عابرة من خلال اتجاه عارض تبناه أو عارضه نفر من الكتاب المسيحيين إنما هي مشكلة ضمن عدد من المشكلات العقدية والفكرية والتاريخية تواجه الكنيسة وتواجهها هذه بدورها ولكن بحلول ملفقة أو بمعالجات آنية لأنها لا تملك إزاءها غير ذلك.

22 ـ لقد كان للتفسير الرمزي في تاريخ المسيحية مؤيدوه وهم الأكثرون ومعارضوه بين معتدلين ومتطرفين لكن الكنيسة المعاصرة قد أقلعت عنه لأسباب منها المعلوم ومنها المجهول. لقد جاءت صرخة «كالفن» تظهر التفسير الرمزي على حقيقته. قال في مفتتح شرحه لسفر التكوين: «يجب.... أن نرفض رفضاً باتاً كل التفاسير الرمزية التي قام بها أورجينوس وغيره والتي حاول الشيطان بدهائه أن يدخلها إلى الكنيسة لكي يجعل رسالة الأسفار المقدسة مبهمة وخالية من كل ثقة وثبات»[31].

وفي هذا المسار المعارض للكنيسة في تبنيها لاتجاه التفسير الرمزي جاءت ردة فعل «لوثر» عنيفة فتوجه بالنقد والمعارضة الشديدة للتفسير الرمزي: «إن تفاسير أورجينوس الرمزية لا تساوي كمية صغيرة من الأوساخ..... إن التفاسير الرمزية افتراضات فارغة وهي أشبه بنفايا الأسفار المقدسة.... وكل من يفسر الكتاب تفسيراً رمزياً يكون كأنه يخادع الأسفار المقدسة.... قد يتحول التفسير الرمزي إلى ألاعيب... التفسير الرمزي غير لائق وغير معقول وشيء متكلف كلفة وقديم بال»[32].

23 ـ الذي يحتاج إلى النظر والتأمل فيما يتصل بمراحل تاريخ المسيحية ومرحلة التفسير الرمزي ثم معارضتها من الجهات التي حاولت الإصلاح مثل

---

(30) المرجع السابق. ص 105.
(31) المرجع السابق. ص 112.
(32) المرجع السابق. ص 114.

كالفن ولوثر الذي يحتاج إلى النظر والتأمل هو هذه الحملة التي شنت على هؤلاء المعارضين للتفسير الرمزي بسبب معارضتهم: «فكارولي اتهم كلفن بأنه من أتباع الآريوسية المذهب الذي ينكر لاهوت المسيح. وأشار عليه بأن يعتنق مذهب اثناسيوس القائل بأن الابن من مادة الأب نفسها. فرفض كلفن وقال: إننا نقسم بالإيمان بالله الواحد وليس بإيمان اثناسيوس ذلك الإيمان الذي لا يمكن لأية كنيسة صحيحة أن تقبله.

كما اتهم كلفن من قبل أحد الانجيليين بأنه انـتزع السلاح من يـد المجاهدين المسيحيين. وقال إنجيلي آخر: إن كلفن فسر سر الثالوث ولاهوت المسيح كما يفسره اليهودي أو السوسني الذي ينكر الثالوث ولاهوت المسيح. وقال عنه هونيوس أحد الإنجيليين: إنه أفسد الأسفار المقدسة بطريقة مكروهة حتى أنه كان يجب أن يحرق بالنار. وكذلك الروم الكاثوليك نعتوه بنعوت أخرى محقرة»[33].

24 ـ من الجلي أن مسألة التفسير الرمزي في تاريخ المسيحية قد آل الأمر إليها تحت حاجة ملحة فرضتها جملة تناقضات تضمنتها نصوص الأسفار في العهدين القديم والجديد. وأن هذه المسألة تلف في طيها الكثير من الاختلافات وضروب التعارض في جسم المسيحية. وأن الكنيسة قد تبنت فكرة التفسير الرمزي لتواري بها من سوءاتها التي كشف كلفن ولوثر وأتباعهما الكثير منها.

25 ـ هناك قضيتان ذواتا أهمية فائقة في أصول العقائد المسيحية وفي تاريخها وفي تاريخ الكنيسة نشأة وتطوراً.

أولى هاتين القضيتين تتصل ببولس: علاقته القديمة باليهودية وعلاقته اللاحقة بالمسيحية ومقدار ما كان له من أثر في توجيه المسيحية وجهة جديدة مغايرة خرجت بها عن أصولها القديمة من التوحيد إلى التثليث ومن الإنجيل الواحد الموصى به من الله إلى جملة من الأناجيل المنسوبة إلى مؤلفيها. ومن الدائرة الخاصة المحدودة في حيز إصلاح اليهودية والتوجه بها من خلال رسالة المسيح ابن مريم نحو مسارها الصحيح. خرجت المسيحية من هذه الدائرة إلى

(33) المرجع السابق. نفس الصفحة.

دائرة غير محدودة توجه من خلالها بولس ثم من بعده الكنيسة بالخطاب إلى كل الناس.

إن علاقة المسيحية التي كانت قبل بولس تلك التي جاء بها رسول الله عيسى عليه السلام علاقة هذه بأصول الاعتقاد والتشريع في اليهودية وبالنصوص التي اعتمدت عليها تلك الأصول هذه العلاقة لا يتنكر لها المسيح نفسه ومؤاخذاته كلها كانت موجهة إلى هذا الوضع المهزوز الذي آلت إليه علاقتهم بشريعتهم ونصوص توراتهم. وهذا هو سند المسيح في تحديد الغاية من رسالته المجددة. لكن بولس يخرج عن هذا الخط الذي رسمه المسيح عليه السلام «لقد نشأ بولس يهودياً متعمقاً في مبادىء أضيق طائفة عبرانية ثم وجد أن كثيراً من المعتقدات القديمة التي كان متمسكاً بها لم يعد بإمكانه الثقة بها فغير تفسيره للأسفار المقدسة»[34].

يمكن القول من خلال كل ما سلف بأن هذا هو أوضح قطاع في صورة المسيحية منذ بولس إلى الآن مع اعتبار التهذيبات والاضافات المتلاحقة. لكن من حق المسيحي أن يسأل عن هذه المعتقدات القديمة التي كان بولس متمسكاً بها ما هي؟ وما هي المعتقدات الجديدة التي أتى بها بولس بدل تلك القديمة؟ ولماذا غير بولس تفسير الأسفار المقدسة؟ وإلى أي حد كان موفقاً في التفسير الجديد؟ وما هي الضمانات المتوفرة لكي نعتبر بولس مخلصاً وعلى حق فيما انتهى إليه بشأن المعتقدات القديمة والمستحدثة وتفسيرات نصوص التوراة وإنشاء الرسائل التي اعتبرت فيما بعد ضمن الكتاب المسيحي المقدس؟؟؟؟

إن هذه التساؤلات تلقي ظلالاً على صورة المسيحية لكن من حق المسيحي الواعي أن يسألها ليختبر حقيقة دينه وأصول معتقده وتاريخ لاهوته وكنيسة.

26 ـ القضية الأخرى متصلة بالمسيح: هل هو رسول فحسب؟ إذا كان الأمر كذلك فما سر هذا الادعاء اللاحق في تاريخ المسيحية بألوهية المسيح؟ هل لهذه العقيدة الناشئة الطارئة في تاريخ المسيحية أصل فيما ينسبه كُتّاب الأناجيل

(34) المرجع السابق. ص 240.

المعتمدة لدى الكنيسة إلى المسيح من أقوال؟ «إن ألوهية المسيح إذا اعتبرناها كمعتقد لا نجدها كذلك في العهد الجديد»[35].

إن من التأسيس للعقيدة والتعميق لركائز الإيمان أن يطرح باهتمام فائق مثل هذا السؤال ـ الذي يطرحه المؤلف ـ: «ما هي الحقيقة عن الله»[36].

وليس من المبالغة القول بأن هذا السؤال هو من أحرج الأسئلة التي واجهت وتواجه الكنيسة والمسيحية من خلالها. ومن السذاجة المفرطة والتبسيط غير المعقول وغير المقبول لهذه المسألة الدقيقة أن تكون الإجابة عن هذا السؤال على النحو الآتي: «قد وجدنا الله في المسيح أفضل شخص نعرفه ولهذا لن نفسر الله في أقل من ذلك»[37] هل هذه الإجابة القاصرة تكافىء ذاك السؤال؟ كلا «إن عقيدة الثالوث تحير عدداً كبيراً ولا لوم عليهم» ومن ثم فإن الفكر الكنسي يحاول محرجاً مكرهاً أن يقوم ببناء «قوالب جديدة تتناسب مع عقلية العصر الحاضر حتى ولو اضطررنا إلى بناء نظام من المعتقدات يأتي زمن نهدمه فيه إذا وجدنا أنه لم يعد مناسباً لتفكير العصور المستقبلة. ومع كل ذلك يشك المرء أنه يمكن بسهولة وضع تصريح أوضح لاستيعاب تعاليم المسيحية الحديثة إذا شعرنا بالحاجة وعقدنا العزم الصحيح والتعاون الحقيقي لسد هذه الحاجة»[38].

27 ـ هذا لون من الفكر الغربي وهو فكر ذو صبغة كنسية لكنه مع ذلك صريح في بيان معالم صورة المسيحية والافصاح عنها بما يحدد علاقتها الفعلية بالعقل الحديث من خلال نصوص أسفار العهدين القديم والجديد هذه الأسفار التي آل بها الأمر إلى وضع صارت فيه متناقضة متصادمة مع مقتضيات العقل ومكتشفات العلم. ولم يعد بالإمكان إخفاء ذلك أو الاغضاء عنه والتستر عليه.

لكن الكنيسة ماضية في خط السير الذي رسمه بولس تبشر بما اصطنعت

---

(35) المرجع السابق. ص 241.
(36) المرجع السابق. ص 242.
(37) المرجع السابق. نفس الصفحة.
(38) المرجع السابق. ص 246.

من العقائد ولو أدى بها الأمر إلى «إعادة الهدم والبناء في نظام معتقداتها» وهذا المنهج إذا اعتمدته الدراسات اللاهوتية المعاصرة فإن الأمر سينتهي إلى قطيعة لا مناص منها بين المسيحية وبين نصوصها الدينية التي لا يمكنها التخلي عنها وإلا فقدت شرعيتها. وهو سيؤدي كذلك إلى تزايد وتعمق الانشقاق الكنسي. وهو أخيراً لن يحقق الغايات التي يرسمها أقطاب الكنيسة؛ لأن أمر العقيدة بحكم العقل والضمير وبمقياس الفكر والشعور لا يستقيم ولا يكون له قرار مع هذه الأوضاع المهزوزة المتقلبة المترددة.

* * *

28 ـ الكتابات الغربية المعنية بتسليط أضواء كاشفة على المسيحية ورسم صورة لها من خلال تبين وبيان أصولها ومراحل تاريخها والتطورات الناشئة خلال هذه المراحل. والانشقاقات داخل المسيحية من خلال تعدد المذاهب وصراع الكنائس ثم تحديد الصعوبات التي تعاني منها المسيحية منذ بزوغ فجر النهضة بما لحقه من تطورات ثقافية وفكرية وعلمية هذه الصعوبات التي بدأت ولم تنته. هذه الكتابات الغربية الكاشفة لصورة المسيحية على حقيقتها ربما صح القول بأن انتشارها تحكمه مجموعة من العوامل المعارضة أو المساعدة وبخاصة في مناطق خارج المنطقة الجغرافية لأمم الغرب. وعلى الأخص في العالم الإسلامي حيث تتحكم في العلاقات كلها بين الغرب والعالم الإسلامي نظم وقواعد كلية كان تاريخ العلاقات بين العالمين كفيلا بصياغتها ومتابعتها والمحافظة على أصولها وموجهاتها. على أن النظام الكنسي المعني بشؤون المسيحية من خلال مؤسساته وإداراته المتخصصة هو على درجة من التنظيم بحيث لا تفلت منه هذه الكتابات المناوئة للمسيحية: فإما أن يمنعها من الظهور أو يحد من انتشارها بمقتضى قانون التحريم الذي ابتدعته الكنيسة. فإن لم يستطع فإنه يوجهها إلى صورة من التعميم بحيث تطال في نقدها كل الأديان وفي طليعتها الإسلام.

ورغم هذا الحصار على المؤلفات الفكرية المحللة الناقدة لضروب الحياة الثقافية والفكرية والدينية طبقاً للمقاييس المسيحية فإن عدداً من الكتب جاءت على هذا النسق وانتشرت. وكتاب: منشأ الفكر الحديث. لمؤلفه الأمريكي

الدكتور كرين برينتون يمكن أن يوضع ضمن هذه المصنفات ذات الصبغة التحليلية الناقدة. وقد شغلت مسألة المسيحية حيزاً من الكتاب فأولاها المؤلف اهتماماً وتناولها من زاوية فكرية خالصة بدت صورة المسيحية من خلالها أكثر وضوحاً وواقعية.

يتضمن الكتاب جملة من الرؤى والانطباعات والآراء في حدود الفكر العربي بعامة وفي علاقة هذا الفكر بالمسيحية بخاصة. ويعتمد على عدد من المصادر الفكرية ذات العلاقة[39].

29 ـ في الكتابات الغربية كثيراً ما يجد القارىء مقابلات وموازنات بين العصور الوسطى وبين عصر النهضة في كل المجالات الحيوية: في الاجتماع والاقتصاد في الثقافة والفكر. وقضية الدين تأخذ مكانها في هذه المقابلات. ومع أن الأوضاع أخذت تتجه إلى الأفضل في عصر النهضة غير أن علاقة الأقطار الغربية بالمسيحية أخذت مساراً آخر: فإذا «كانت العصور الوسطى في الواقع عصوراً دينية فإن عصر النهضة يعني على الأقل محاولة العودة إلى الوثنية اللادينية إن لم نقل إلى الزندقة»[40].

لقد كانت المسيحية تشد الناس إلى الوراء وقد تهيأت لهم ظروف التقدم فأفلتوا من قبضتها وآثاروا وثنية الآباء. هكذا كانت صورة العلاقة بين الناس في أمم الغرب وبين المسيحية.

30 ـ وإذا شئنا أن نحدد قطاعات بعينها في هذه الصورة ازداد الأمر وضوحاً وبدت معالم الصورة أكثر بروزاً. لقد قيل في تحديد عوامل التقدم في الغرب: «إن هذا التقدم وليد انتشار فكرة السببية. لقد كانت فكرة السببية بالنسبة لرجل عصر العلم والمعرفة المفتاح الكبير لهذا العالم؛ فالسببية هي التي ستقود الإنسان إلى فهم الطبيعة... وتحول دون التعرض إلى محاولات فاشلة

---

(39) ترجم هذا الكتاب إلى العربية الأستاذ عبد الرحمن مراد. وظهرت الطبعة العربية بدمشق. قام بالنشر: مكتب الفن الحديث للطباعة والنشر والإعلان.

(40) ص 27: منشأ الفكر الحديث: كرين برينتون.

نتيجة إيمانه ببعض الأفكار الخاطئة التي كسبها عن المسيحية التقليدية وعقليتها ومؤيديها السياسيين بالسير سيراً مناوئاً للطبيعة»[41].

31 ـ إن العقل الغربي منذ أمد صار يفكك المسيحية إلى أجزائها ليتبين تأثيراتها السلبية على الحياة والإنسان. وطبقاً لهذا المنطق المحلل اعتبر «نظام الرهبانية جميعه ليس إلا ضياعاً للقوة الإنتاجية الإنسانية كما تبين بوضوح مدى الضرر الذي يلحق بالإنسان. وبصحته نتيجة امتناعه عن الاتصال الجنسي. ولذا فإن نظرة التقديس التي يسبغها رجال الدين على الرهبانية هي ضرب من السخف»[42].

32 ـ ثمة مسألة عقدية دينية جديرة بالنظر. ما هي؟ لقد أخفقت المسيحية في مواكبة تطلعات عقول رجال العلم في عصر النهضة. وفشلت في توظيف حركة العلم لصالح الدين ومنشأ هذا الإخفاق من طرف المسيحية أن العلم التجريبي قد بني على أنقاض مقررات المسيحية عن التاريخ والحياة والإنسان والكون. ومع هذا فقد نشأ جيل بين المفكرين والعلماء في بداية عصر النهضة آثر فكرة الإيمان بالله. وكانت هذه الفكرة أقرب إلى الفطرة منها إلى مقررات المسيحية عن طبيعة الإيمان. لكن هذه الفطرة كانت في الأعماق وقد تكدس فوقها ركام من المقررات الخاطئة ساهمت المسيحية في وجودها وبقائها بقدر كبير مما أحدث موجة من الشك والتردد عبر عنها فولتير في هذه الكلمة الشهيرة التي تؤثر عنه: إذا لم يوجد الله فيجب علينا اختراعه.

لكن الجيل التالي بعد عصر فولتير سرى بين أبنائه وهْمٌ مؤداه أن العلم يغني عن الدين. وأن الكون يمكن أن يفسر دون الالتجاء إلى فكرة الإله الخالق. فهؤلاء «لم يروا ثمة حاجة لاختراع الإله؛ فقد ألفوا من خلال دراستهم الرياضيات مفهوم اللانهاية: فالجهاز الكوني كان وما زال موجوداً وسيوجد دوماً وأبداً. وإذا كان الإله خارج هذا العالم فكيف يستطيع أن يكون داخله أو

(41) المرجع السابق ص 147.

(42) المرجع السابق ص 149.

بالأحرى داخل عقولنا بمثابة مفهوم؟.... فلندع الاهتمام بأمر الله ونجعل ديننا مَبْنياً على السببية. وأن هذا النظام ديني خال من جميع الديانات وسخافاتها»[43] في هذا الجو انتعشت ونمت بذور الإلحاد. وطبقاً لهذا التردد في مسألة الله والدين نشأ وهم العلاقة بين الالحاد والعلم ومن ثم التنافر بين العلم والإيمان. وتلزم الاشارة هنا إلى أن هذا التردد في مسألة الدين والإيمان وهذا الغموض في تحديد العلاقة بين الله والكون وبين الله والإنسان وبين الإنسان والكون تبعته تقع على كاهل المسيحية: فهذا الخلط الذي بشرت به الكنيسة والذي آل الأمر فيه إلى عدم تبين وعدم وضوح طبيعة الله وطبيعة الإنسان وطبيعة العلاقة بينهما كان من اللازم أن ينتهي إلى نتيجة مؤداها طبقاً للفطرة ولما اكتشف حتى الآن من حقائق العلم عن الكون ضرورة الإيمان بإله واحد خالق. أما خارج هذا الإطار فقد كانت النتيجة المنتظرة من مقدماتها ظهور موجة من الشك والإلحاد يقويها ويدفعها وضع كنسي متردد متخلف وفكرة مسيحية باهتة عن الله وعن الكون والإنسان. لكن هذا النقد لم يكن يوجه إلى المسيحية ويقف عندها إنما كان يطال الدين كله لأسباب حددنا طرفاً منها سلفاً. إنها صورة من التعميم تؤخذ على رجال الفكر والعلم الذين تصدر عنهم هذه التعميمات. ويمكن القول بهذا الصدد دون مواربة أو مبالغة إنه ما من نقد صحيح نزيه وجه إلى المسيحية أو إلى الأديان عموماً يصح أن يوجه إلى الإسلام طبقاً لأصوله ومقرراته عن الله وعن الكون والحياة والإنسان.

33 ـ من مواضع النقد لأنها من مواضع التناقض بين مقررات المسيحية وبين مسلمات العقل والفطرة فكرة «الخطيئة والخلاص» طبقاً لما تقرره المسيحية في مسألة الخير والشر والجزاء: فطبقاً لمقاييس المعرفة هناك جملة من الشروط المحيطة «فإذا استطاع الإنسان العمل بالقوانين المتفق عليها وبالمبادىء والمثل.... فإنه سيسير قدماً في طريق الحياة الخيرة... أما المسيحية فتحاول أن تلقي بالأمر على عاتق الطبيعة الإنسانية: فالناس يولدون وفي نفوسهم ميل نحو الشر والخطيئة تولد معهم. وتعتقد هذه الديانة أن هناك إمكانية لتحرير النفس من هذه الخطيئة

(43) المرجع السابق. ص 151.

وهي طريقة الخلاص التي بشر بها يسوع. لكن هذه الطريقة لا تقيم وزناً لجملة الشروط المحيطة. كما أنها تتنافى مع الرضوخ والانصياع للقوانين والعمل وفق المناهج التعليمية والخطط المدروسة»[44].

وإذا تساءلنا: ما هو من هذا العداء وهذه الحملات على المسيحية وعلى الدين كله في الغرب إبان عصر النهضة؟ كان الجواب: «إن جملة من الأسباب تعود إلى المسيحية ذاتها إذ بدت أصولها كما قررتها الكنيسة متعارضة مع فطرة الإنسان وطبيعة الحياة وتطور المعرفة ومناهج العلم التجريبي ونتائجه. لكن أسباباً أخرى تعود إلى الكنيسة والقائمين عليها «فقد كانت روح عصر العلم والمعرفة في عداء واضح للديانة المسيحية المنظمة ففي كل زمان ومكان كنت ترى رجال الدين أعداء للحرية حلفاء لقوى الاستبداد والظلم يجنحون إلى الغش والخداع لفرض حماية أنفسهم والمحافظة على سلطتهم» وكانت النتيجة أن «ظلت فئات مسيحية كثيرة تعيش حسب طرقها القديمة في الإيمان والاعتقاد وقد تعرضوا لضغط كل من الصحافة والشعب»[45].

34 ـ إن هناك عدداً من العوامل وجملة من المؤثرات أدت إلى هذه الصورة المهزوزة للعلاقة بين أمم الغرب وبين المسيحية الوافدة. وحتى ندرك هذه الصورة على حقيقتها ومن كل زواياها يلزم أن نرصدها من موقع مناسب وأن نتابع تطوراتها ونتتبع من قبل المؤثرات التي ساهمت في رسمها. فرحلة المسيحية من موطنها في الشرق إلى الغرب لم تكن مشروعة ولم تكن المسيحية مهيأة بطبيعتها للقيام بهذه الرحلة. ولم تتم في ظروف مواتية وقد تعرضت المسيحية بعد هذه الرحلة لسلسلة من التغيرات والإضافات والأوامر المفروضة من السلطة السياسية الحاكمة مع محاولات إصلاح متلاحقة قامت بها المجامع المسكونية والمجامع المصغرة كذلك. لكن كل هذا لم يمنع من وقوع الأمر المتوقع وهو الصدام مع مقررات العقل ومقتضيات الحياة بتطوراتها المتتابعة المتنوعة.

* * *

(44) المرجع السابق. ص 155.
(45) المرجع السابق. ص 170.

35 ـ ضمن سلسلة من البحوث والمقالات والرسائل والكتب المتصلة بالمسألة الدينية وبالديانة المسيحية على الخصوص تتابعت منذ بداية عصر النهضة كتابات كبار الفلاسفة في الغرب. وتكفي بعض النماذج لنتبين من خلالها صورة المسيحية في مرآة الفكر الغربي.

فالفيلسوف الألماني «هيجل» تتضمن كتابات له نظرات فاحصة إلى المسيحية ترددت بين الإطراء والهجوم. ففي المقابلة بين ديانة اليونان الوثنية وبين المسيحية يشيد هيجل بديانة اليونان «ويرى فيها ديانة أناس أحرار لا يعرفون وطأة الحقيقة. . . . أما المسيحية فقد ألقت في روح الإنسان أنه مواطن للسماء وأنه غريب عن هذه الأرض فقضت بذلك على التلقائية المرحة المنطلقة التي كان يتمتع بها الرجل اليوناني وأحلت محلها حب العذاب والألم. . . . لقد خلعت عن الحياة طابعها الإنساني فجعلت من الطبيعة مجرد مجموعة من القوى المادية التي لا بد للمسيحي من قهرها والسيطرة عليها وأحالت الإنسان إلى مجرد عبد ذليل يعلن أنه ليس إلا إنساناً آثماً لا يقوى بمفرده على الإتيان بأي عمل فاضل»[46].

36 ـ ونشير هنا إلى أنه من الطريف أن هيجل وهو يوجه نقداً مباشراً إلى المسيحية «قد ثار على النزعة الفردية المتطرفة التي كانت تعد الدين مجرّد مسألة شخصية بحتة لا تهم سوى الفرد. وحجة هيجل في ذلك أن الأصل في شقاء الضمير المعاصر إنما هو هذا الطلاق الذي تم بين الدين من جهة والحياة من جهة أخرى. وكأن ليس ثمة صلة على الإطلاق بين المتناهي واللامتناهي أو بين الأرض والسماء. ومن هنا فإن المهمة التي تقع على عاتقنا أولاً وقبل كل شيء إنما هي العمل على توسيع الدين بحيث يشمل الحياة بأسرها. . . . فلا بد للدين من أن يتجاوز الاهتمامات الفردية لكي يستوعب كل الاهتمامات العالية عن حياة الفرد مشاركاً في تلك الحياة الجماعية التي أطلق عليها هيجل اسم «روح الشعب»[47].

---

(46) ص 37: الجزء الأول من كتاب: عبقريات فلسفية 2 هيجل أو المثالية المطلقة. المؤلف: الدكتور زكريا إبراهيم. ومن هذا الكتاب نقلت نصوص هيجل المترجمة بقلم المؤلف معزوة منه إلى مصادرها في مؤلفات هيجل.

الكتاب نشرته مكتبة مصر. القاهرة. 1970 م.

(47) المرجع السابق. ص 39.

37 ـ ومن الدراسات التي ظهرت لهيجل متصلة بالمسألة الدينية «دراسته القيمة لتطور الشعور الديني حيث حاول أن يقف على أسباب الانحلال الديني الذي يشكو منه العالم الحديث. وأرجع هذه الأسباب إلى عجز الدين نفسه عن مسايرة روح العالم في تطورها»[48] ويقيننا أن هيجل وهو يصور الدين هنا لم يعرف الإسلام أو لم يشأ أن يفصح عن طبيعته وحقيقته أو أنه لا يعني من الدين إلا المسيحية. وهذه كلها مناقص تؤخذ على هيجل في بحثه لمسألة الدين.

38 ـ في دراسة لهيجل سماها: وضعية الديانة المسيحية «يتساءل عن السبب الذي من أجله تحولت المسيحية من ديانة تدعو إلى الحرية وتنادي بالمحبة إلى ديانة تقول بالسلطة وتدعو إلى العبودية؟ وهو يعلل هذه الظاهرة بتسلل بعض العناصر اليهودية إلى الديانة المسيحية. يقول هيجل: «إن المسيح نفسه لم يأت إلى هذا العالم لإقامة دين جديد أو وضع أخلاق جديدة بل لتحرير الإنسان من ربقة الشريعة.... إن الحياة الأخلاقية لم تعد تقوم على التلقائية الحية للعقل العملي بل أصبحت تستند إلى التعليم الوضعي للكنيسة. وتبعاً لذلك فإن المسيحي لم يعد يستشير ضميره قبل الإقدام على أي فعل بل أصبح يبحث عن القوانين التي استنها رجال الكنيسة بهذا الخصوص.... لقد دعا المسيح تلاميذه إلى اعتزال العالم والتزام بعض المبادىء الخاصة. ولكن هذه المبادىء لم تعد تصلح قواعد عامة لتوجيه سلوك الجماعات. ومن هنا فقد ظهرت استحالة تطبيق تلك المبادىء بمجرد ما أرادت بعض المجتمعات التزام هذه القواعد التي لم تكن مجهولة في الأصل إلا لبعض الأفراد. وهكذا ظهر التناقض واضحاً بين إنكار العالم على نحو ما يقضي به الموقف المسيحي وبين ضرورة التمسك بالعالم على نحو ما تقتضيه الحياة الجماعية في كنف الوطن»[49].

39 ـ في إحدى دراساته عن تاريخ المسيحية اهتم هيجل بتفسير ظاهرة انتشار المسيحية في الغرب وانتصارها على الوثنية في الامبراطورية الرومانية وانتهى من ذلك إلى تحديد وبيان جملة من الأسباب: «لقد حاول أن يبين لنا كيف

(48) المرجع السابق. ص 42.
(49) المرجع السابق. ص 45.

استطاعت المسيحية على الرغم من مظاهر نقصها أن تقضي على ديانة كانت أكثر منها توافقاً مع الطبيعة البشرية ألا وهي الديانة الوثنية اليونانية. . . . لقد ساءت ظروف المعيشة نهاية حكم الامبراطورية الرومانية إلى الحد الذي جعل الروح القديمة لا تجد في الوثنية تلك السكينة التي كانت تنشدها وهكذا كان انتصار المسيحية ثمرة لحالة الانحلال الشامل الذي انحدر إليه العالم القديم في تلك الآونة. . . . . إن هيجل ينسب إلى الضمير المسيحي ضرباً من التمزق والشعور بالعزلة والوحدة والضعف. . . . . إن المسيحية قد قضت على خيال الشعب وجعلت منه مجرد خرافة مهينة أو مجرد سم شيطاني. وأقامت بديلاً منه خيالاً دخيلاً هو خيال شعب غريب عنا تماماً لا بمناخه وعاداته وتشريعه فحسب بل باهتماماته وحضارته وتاريخه أيضاً»[50].

40 ـ جليٌّ هنا أن هيجل يتحدث ـ تاريخياً ـ عن حدود الدائرة التي ظهرت فيها المسيحية وكان عليها أن تبقى في إطارها لكنها تجاوزتها لأسباب تاريخية معروفة فآل بها الأمر في الغرب الغريب عنها إلى هذه الصورة من التفكك والتصنع وعدم المعقولية ثم الإنطواء والغربة.

ويمكننا أن نقدر من خلال مطالعات متأملة فيما تعج به المذاهب في الفكر الغربي من آراء عن المسألة الدينية بعامة وعن المسيحية بخاصة يمكننا أن نقدر أن ما أوردناه هنا منقولاً من كتابات هيجل ليس تعبيراً عن رأي أو موقف شخصي بقدر ما هو الموقف العام للفكر الفلسفي المحلل الناقد من هذه الديانة.

* * *

41 ـ وإذا كان تحليل هيجل لجملة من عناصر المسيحية يغنينا عن سرد تحليلات أخرى مماثلة لمفكرين غربيين فإن هناك نمطاً آخر من التحليل للمسيحية يمثله نفر من فلاسفة عناصر التنوير في الغرب جاءت صورة المسيحية في كتاباتهم أشد قتامة. ويكفينا من هؤلاء مثل فولتير وكتابه: القاموس الفلسفي. وهو جملة المقالات التي نشرها فولتير في دائرة المعارف الفلسفية. أهمية القاموس الفلسفي في

(50) المرجع السابق. ص 47.

بحث المسألة الدينية في الغرب أنه يتجه إلى «إعادة بناء الدين على أساس عقلي وهو مشروع الفلسفة الحديثة عند ديكارت وسبينوزا ومالبرانسن وليبنتز وكانط. وهو المشروع الذي يهدف إلى القضاء على الأسطورة وعلى السر وعلى كل ما يند عن العقل. وبالتالي يحاول فولتير إعادة كتابة تاريخ المسيحية كما حاول رينان بعد ذلك»[51] في القاموس الفلسفي بحث لمسألة الدين بعامة تاريخاً وأعلاماً وفيه ما يخص المسيحية.

42 ـ يُعرِّض فولتير بالمسيحية وعقيدة بنوة المسيح لله فيها من خلال استشهاده بعبارة «ماكسيم المادوري» في خطابه إلى أوغسطين: «إنه لإنسان فظ غبي هذا الذي يشك في وجود إله عظيم أزلي لا نهائي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد» لذلك كان الفلاسفة الرواقيون على حق عندما تحدثوا عن إله واحد»[52].

43 ـ واعتماداً على نصوص العهدين القديم والجديد من أصول المسيحية يفحص فولتير العقائد المسيحية فتتهاوى تحت ضربات قلمه ونصاعة حججه: «فعقيدة التثليث لا توجد في الأناجيل فضلاً عن أنها تستعصي على الفهم. وأن القول بثلاثة أشخاص وجوهر إلهي واحد هو إدخال خطأ شنيع في دين المسيح وترويج للشرك.... ولما كانت هذه العقيدة لا وجود لها في الأناجيل الرسمية أو حتى المنحولة كان أعداء التثليث على حق. ولكن كان جزاؤهم الطرد من المجامع الكنيسة حتى ولو كانت الأغلبية لهم.... أما آريوس فقد كان على حق عندما وجد أن التثليث لا يمكن فهمه وآثر تصور المسيح كإنسان وأثبت له طبيعة واحدة هي الطبيعة الإنسانية..... أسقط المسيحيون على يسوع أفكاراً أبعد ما تكون عنه فتحدثوا عن طبيعته وألوهيته.... وإذا أطلق على المسيح نعت «ابن الله» في الأناجيل فذلك لا يعني أكثر من كونه إنساناً خيراً»[53].

---

(51) ص 102 الجزء الثاني: في الفكر العربي من كتاب: قضايا معاصرة للدكتور حسن حنفي حسنين. قام بنشر الكتاب دار الفكر العربي بالقاهرة. ونصوص القاموس الفلسفي المثبتة هنا منقولة من خلاصة الدكتور حنفي التي رجع فيها إلى الأصل الأجنبي.

(52) المرجع السابق. ص 103.

(53) المرجع السابق. ص 105.

44 ـ وفي بيانه للعلاقة بين المسيحية وتطوراتها التاريخية المتلاحقة يتوقف فولتير ليؤكد أن العقائد المسيحية «قد نشأت وتطورت بطريقة تاريخية محضة: كل جماعة تضيف صياغة جديدة حتى نصل إلى صياغة مجمع نيقية الأول في القرن الرابع: يقول بطرس في الجمعية: أو من بالله الأب القادر على كل شيء. فيقول أندريه: ويسوع المسيح. ثم يضيف يعقوب: والذي ولد بفعل الروح القدس. أو يقول بطرس: أو من بالله الأب القادر على كل شيء. فيضيف يوحنا: خالق السماء والأرض. ثم يضيف يعقوب: أو من بيسوع المسيح ابنه الوحيد وإلهنا.

لم تظهر هذه الصياغة النهائية قبل القرن الرابع بعد أن عاشتها الجماعة المسيحية الأولى بقلبها. . . .

«إن المسيح لم يترك وراءه ديناً اسمه المسيحية ولم يسم أنصاره مسيحيين هو لفظ تاريخي محض يدل على فرقة أو جماعة وليس على دين»[54].

ثم يستطرد فولتير فيحدد جملة من المسائل تتصل بتاريخ المسيحية وعلاقتها باليهودية وانشقاقها عنها وتطوراتها اللاحقة من خلال الكنائس والمجامع التي يضفي المسيحيون على قراراتها صفات من القدسية لا تستحقها من خلال بحوثهم اللاهوتية الجدلية.

* * *

45 ـ إذا شئنا أن نحدد بإيجاز سمات واضحة لصورة المسيحية في هذه الكتابات التي أثبتنا طرفاً من نصوصها هنا أمكننا القول بأن المسيحية منذ لقائها مع الوثنية في الأقطار الأوروبية بعد رحلتها من الشرق قد انحرفت عن خط السير الذي رسمه آخر أنبياء اليهود المسيح بن مريم عليه السلام. والمسيحية بهذا الاعتبار لم تكن مؤهلة لمواجهة وثنية عميقة الجذور في المجتمعات الغربية التي نظرت إليها دائماً باعتبارها ديناً غريباً على تلك البيئة ومن ثم فقد أخفقت في أن توجه تلك الشعوب إلى خط الإيمان الصحيح. ولم يقف الأمر عند هذا الإخفاق بل تعداه إلى تأثيرات معاكسة من الوثنية على العقائد المسيحية كما قررتها المجامع

(54) المرجع السابق. ص 109.

وبشرت بها الكنائس. ومع هذا التنازل من قِبَل المسيحية للوثنية بقيت المسيحية مركباً غريباً من جملة عقائد لم يكن بالإمكان أن يستسيغها العقل ففرضت بالقوة في فترات سيطرة الكنيسة. وعندما فقدت الكنيسة سيطرتها كانت الكلمة للعقل: فظهرت الاتجاهات الفلسفية والمذاهب الفكرية تندد بسلطة الكنيسة وسيطرة رجال الدين وتخضع المسيحية لمناهج النقد التاريخية والفكرية. وظهرت اتجاهات تدعو إلى الإيمان بمركب جديد للدين تقوم أسسه على جملة من مسلمات العقل والضمير.

46 ـ نشير هنا إلى أن الغرب ـ وهذه هي السمة الغالبة المسيطرة ـ قد نظر إلى الدين في ثوبه المسيحي الكنسي المرقع المنفر. حتى المفكرون العظام من أمثال ديكارت وكانط وهيجل لم تكن نظرتهم إلى الدين نظرة تاريخية استقرائية مدققة شاملة ولا هي بالموضوعية المخففة ولعل جملة من المؤثرات والموانع حالت بينهم وبين الدعوة الإسلامية وتبيّن حقيقة القرآن وطبيعة الإسلام مما فوت فرصة نادرة على أمم الغرب كان يمكن أن تتعرف خلالها على دين الله الحق بخصائصه ومواكبته لحركة الحياة وعلى الوحي الإلهي الحق بأسسه وأسانيد ثبوته.

إن المفكرين الذين تناولوا في كتاباتهم مسألة الدين بعامة هم الذين تقع عليهم تبعة هذا القصور أو التقصير. وهذه المسؤولية ذاتها تقع على كاهل الكتاب الغربيين المعاصرين المعنيين بدراسة الأديان. إنا لا نستبعد في هذا السياق مؤثرات تحول دون التوجه إلى الإسلام لهذه الغاية الصحيحة دون غايات أخرى كانت دراسات الغربيين عن الإسلام من أجل تحقيقها لكن هذه المؤثرات من اللازم أن تتلاشى آثارها مع الموقف الفكري الموضوعي الذي يريد أن يحقق في مسألة الدين دون أن يتأثر في البحث بتصورات مسبقة عنها.

لقد وصل صوت الإسلام إلى كل الآذان فلماذا تحجب حقيقة هذا الدين عن عقول السامعين؟؟؟ وإذا أخفقت المسيحية في تهذيب مادية الغرب لأنها تقع على الطرف المقابل المناقض فلماذا لا يعطي المخلصون لأممهم هناك فرصة لدعوة الإسلام يقولون جانباً من ذلك بأنفسهم؟؟؟

47 ـ إن التمكين للإعلام الكنسي التبشيري في الغرب وفي أقطار أخرى والانفاق عليه بسخاء إنما هو مناطحة الصخور. وهو بمقياس العقل مكابرة وبمقياس التاريخ غفلة عن العبرة. وهو بمقياس الدين الضلال المبين.

48 ـ إننا في حقل الدعوة الإسلامية معنيون بهذه المسألة ـ أو يلزم أن نكون كذلك ـ ملزمون بأن نحافظ على استمرارية حركة الدعوة. ولا نقتطع بذلك أطرافاً من المعمورة إلى أقطار أمة الإسلام لكنا نريد أن يشع نور الإسلام في كل أقطار الأرض. ولا نريد أن نفرض للإسلام عقيدة أو نظاماً إنما القصد أن يعرف كل الناس حقيقة دين الله الإسلام. ونحن إلى جانب ذلك بحاجة إلى استجابة من الطرف الآخر حيث تترك دعوة الإسلام وشأنها تتحرك بين الأفراد والأمم في الغرب دون عوائق أو مصدات. دعوة تتوجه إلى العقل وتخاطب الضمير وتنقب عن فطرة الله في أعماق الإنسان. وننتهي من خلال كما ما سلف إلى القول بأن صورة المسيحية كما تمثلها في وضوح وصراحة جملة من الكتابات الفكرية في الغرب الحديث نعتبرها تمهيداً غير مقصود يمكننا أن نستثمره لحركة الدعوة الإسلامية في الأقطار الغربية؛ فإن الإنسان أياً كان ومتى وحيث كان إذا تهيأت له ظروف البحث وشروط الاختيار والنظر قد ينتقل من عقيدة يزهدُ فيها إلى دين شامل يقتنع به لكن الإنسان لا يصير أبداً إلى فراغ.

إن الدعوة الإسلامية في مواجهة كل الدعوات التي تتناقض معها بدون استثناء مهيأة لأن تنتشر بين أمم الغرب.

وإن النزعة العقلية والتطلع إلى كشف أسرار الكون وخباياه تلك النزعة وهذا التطلع هما نقطتا الالتقاء بين دعوة القرآن ووعي الإنسان؟